استئناف مفاوضات الحكم الذاتى: فى أى وقت!

أنيس منصور

أكتوبر قال لى شاه إيران منذ أيام ، وهو يتحدث عن دور أوروبا الغربية : لا شىء يهم المواطن الغربى سوى أين يقضى إجازته الصيفية أو الشتوية ، وكيف يشترى حاجاته بالتقسيط ، أما الدولة فكل الذى يشغلها هو كيف تنفق أقل على التسليح ! . .

ومعنى كلام الشاه أن الدول الغربية لا يهمها كثيرا ما تدعيه من مبادىء رفيعة وقيم سامية . إنما أولا وأخيرا : مصالحها . وعلى أساس المصالح المتبادلة يجب فهم كل شىء . .

ولم يشأ الشاه أن يشير إلى نشاط الرئيس الفرنسى ديستان أو كبار المسئولين الإنجليز فى الشرق الأوسط . .

ولم يصبح دور الدول الغربية واضحاً ، إلا بعد أن بدأ يضعف الدور الأمريكى ، دوليا وإقليميا ، وفى المفاوضات بين مصر وإسرائيل . فدور أمريكا فى أفغانستان لا يقل غموضا عن دورها فى إيران ، وما يقوم به سفيرها لبزقص بين إسرائيل ومصر ، أقرب إلى دور الوسيط منه إلى دور الشريك .

وبعض الدول العربية المعتدلة تحاول الآن أن تفعل شيئا بمساعدة الدول الغربية ، وربما كان هذا هو السبب فى أن بعض الدول العربية المعتدلة قد أحست أن وقتا طويلا قد مضى دون أن يتحقق شىء . فلماذا لا تحاول أن تضع يدها على كتف فرنسا وألمانيا وبريطانيا ، لعل شيئا يتحقق . ؟

فهل صحيح أن وقتا طويلا قد ضاع دون أن نصل إلى شىء ؟ لسنا فى حاجة إلى أن نعيد ما هو معروف عن معاهدة السلام مع إسرائيل . وقبلها اتفاق كامب دافيد لتحقيق السلام مع كل العرب – وليس مع مصر وحدها – وتحقيق الحكم الذاتى للشعب الفلسطينى .

وكما تحقق السلام مع إسرائيل بالمفاوضة ، فلن يكون الحكم الذاتى ممكنا إلا بالمفاوضة أيضا . والتفاوض مع إسرائيل من أجل الحكم الذاتى صعب عليا ، فنحن لا نقوى على أن نعطى تنازلات . أو أن نكون على درجة كبيرة من المرونة . . فنحن قادرون على ذلك فيما يخصنا . ولسنا كذلك فيما يخص الآخرين : الشعب الفلسطينى . وفى مفاوضات الحكم الذاتى نواجهنا كلمات جديدة المفهوم . فالأمن كلمة قديمة . ولكن تعريفها والاتفاق عليه هو الشىء الجديد . ومعنى كلمة الأمن يتضمن كل تاريخ الشعب اليهودى . فهى ليست كلمة واحدة ، إنما هى قاموس سياسى واجتماعى ودينى وتاريخى وعسكرى وعنصرى . .

ثم إن الدول العربية لم تسهل على نفسها المواقف الصعبة . فبدلا من أن تقف معا ضد إسرائيل ، فإنها تركت إسرائيل لمصر . وتفرغت وتفرقت لتسوية حسابات قديمة : بين الأردن والشعب الفلسطينى ، بين سوريا ولبنان ، بين لبنان وطوائفه المختلفة ، بين المغرب والجزائر ، بين اليمن واليمن ، بين الحجاز ونجد . .

والعرب يتفقون على شىء واحد : أن مصر هى السبب . أى أن مصر هى سبب هذا التمزق العربى . فهى التى كانت تجمع العرب ، فلما تخلت عنهم انفرطوا كحبات العقد . . ولكن العرب لا يقولون : إن مصر هى التى جمعتهم ، أو هى وحدها القادرة على جمعهم . إنما يقولون فقط : هى التى فرقتهم . .

وهو نفس المعنى الذى قالوه على مصر يوم انهزمت سنة ١٩٦٧ ويوم انتصرت سنة ١٩٧٣ . فمصر سنة ١٩٦٧ هى التى انهزمت ، والعرب فى سنة ١٩٧٣ هم الذين انتصروا . أى : إذا انهزمنا فنحن مصريون . وإذا انتصرنا فنحن عرب ؟ ! . .

فليس صحيحا – إذن – أن يقال إنه قد مضى وقت طويل دون أن يتحقق للعرب شىء . فقد انسحبت إسرائيل من معظم سيناء . وهذا إنجاز عظيم للعرب . وهذا من شأنه

الرئيس كارتر والسيد حسنى مبارك . عرض الموقف المصرى . واستعراض للمواقف العربية . والبحث عن موعد لعودة المفاوضات .

وزير خارجية فرنسا جاء يبيع ويشترى : منهى الشطارة الفرنسية

أن يجعل مصر أقوى وأقدر على المضى فى تحقيق السلام ، أو تهيئة الجو لأن يكون سلام . بمساعدة مصر أو بدون مصر . .

ونحن العرب أقل الناس جدارة بالكلام عن الوقت الضائع – فتاريخنا مع إسرائيل هو أحسن نموذج لأسوأ طريقة لإضاعة الوقت . . عاما بعد عام . . ثلاثين عاما . . وأربع حروب ! . .

□□□

وقد يقال أيضا إن الدور المصرى قد انتهى . فالمصريون قد استردوا أرضهم إلا قليلا . حتى هذا القليل لم يعد مشكلة . ولذلك فالمصريون يتراخون فى قضية الحكم الذاتى . وهذه مغالطة تمحو التاريخ الواضح لمصر . فمنذ الخطة الأولى للرئيس السادات فى الكنيست وهو يدعو للسلام الشامل . . ولا سلام بدون فلسطين . . ثم إن مصر تدعو جميع الأطراف للمشاركة فى حمل الأعباء . ولا يزال الملك حسين يبعث شرقا وغربا أشكالا وألوانا من رجاله يسألون ما الذى يمكن عمله ؟ . . وكيف ؟ ولا داعى لذكر الأسماء والتفاصيل حتى لا يتخلها الملك حسين ذريعة للانكماش مرة أخرى . . مع أن دور الملك حسين قد تحدد فى اتفاقية كامب دافيد . وكان ذلك بإصرار من الرئيس السادات . .

وقد رفضت مصر قبل كامب دافيد وبعدها . أن يكون للسلام مع إسرائيل طعم الحل المنفرد . ورغم أن الملك حسين قد تهرب من المشاركة منذ اللحظة الأولى . فإن الرئيس السادات قد أصر على دعوة الملك حسين فى أية مرحلة . ولا بد من دعوته . ولكن الملك حسين ليس متعجلا الأحداث . ولا المنظمات الفلسطينية أيضا . .

وبعض الدول العربية المعتدلة قد أحست بغياب الولايات المتحدة . ورأت فى هذا الغياب عجزا أمريكيا عن اتخاذ القرار . وهذه الدول العربية دفعها الفراغ المخيف الذى تركته أمريكا إلى أن تتجه بخوف أشد إلى الاتحاد السوفيتى . ولذلك أحست دول أوروبا الغربية أنها أقرب إلى أمريكا وإلى روسيا . وفى استطاعتها أن تقوم بهذا الدور الذى يرضى أمريكا ويرضى روسيا أو يغضب الاثنين . فأمريكا تفضل أن تقوم الدول الغربية بهذا الدور . وبذلك تبعد الدول العربية عن السوفيت . وروسيا ترى أن الدول الغربية منذ أيام دجول . ماضية فى تعظيم وزنها الدولى بعيدا عن الولايات المتحدة،ولذلك فهى ترحب بأن يكون لها أى دور . .

ولكن الدول الغربية ليست على وفاق فيما بينها . فهى الأخرى لا تستطيع أن تتخذ قرارا واحدا فى أى شىء . والأمثلة على ذلك كثيرة : إيران وأفغانستان والدورة الأولمبية والقضية الفلسطينية . .

وقد حصلت القضية الفلسطينية على تأييد أدبى عظيم من النمسا ومن الاشتراكية الدولية . ولكن هذا التأييد لم يدفع بالقضية شبرا واحدا فى أى اتجاه . .

وأقصى ما تستطيعه الدول الغربية هو العودة إلى الأمم المتحدة . وإشراك الاتحاد السوفيتى فى إصدار قرار يخص الشعب الفلسطينى فى حكم نفسه بنفسه .

هذا ما أعلنه اللورد كارنجتون وزير خارجية بريطانيا ونائبه يان جيلمور .

وما أعلنته الدول الأوروبية أيضا . واكتفت بهذا الإعلان الأدنى الذى يشبه زفة العروس . ولا يعنى الزواج القائم على التوفيق بين رجل وامرأة ! . .

ولم تسخر أمريكا للدور الأوروبى . أو انعدام الدور الأوروبى . ولذلك أعلن بريزنسكى مستشار الأمن الأمريكى : أن أمريكا قامت بما هو واجب عليها . بقى أن نرى ما الذى سوف تفعله الدول الأوروبية ! . .

ولم تفعل الدول الأوروبية سوى أن قام الرئيس الفرنسى جيسكار ديستان بزيارة دول الخليج . وملأ صدره من رائحة البترول . وجيوبه أيضا . فأغضب العرب واليهود معا .

أما العرب فرأوا الرئيس الفرنسى تاجرا أنيقا لأروع ما أبدعته فرنسا . وأعلن ياسر عرفات فى إذاعة «أوروبا رقم ١» : أن الرئيس الفرنسى ضحك على ذقون العرب – كأنه هو الوحيد الذى فعل ذلك فى ثلاثين عاما ؟ !

أما اليهود – فلأول مرة – يتحدون ويتظاهرون ضد الرئيس الفرنسى والحكومة الفرنسية فى عيد انشاء دولة إسرائيل . ولأول مرة يقرر يهود فرنسا أن يتشروا . وأن يكون لهم دور إيجابى ضد الحكومة الفرنسية . ويتوعدون الرئيس الفرنسى فى الانتخابات القادمة . .

وفى أول تصريح للسيد ماسكى وزير خارجية أمريكا الجديد قال إنه يحذر وزراء خارجية الدول الأوروبية أن يفسدوا مفاوضات السلام وروح اتفاقية كامب دافيد ! . .

سعد مرتضى . اتهمت الصحف الإسرائيلية ثم اعتذرت له أمس . والرجل برىء !

شاه إيران . الدول العربية لا تهمها المبادئ

جيئولا كوهين . تريد أن يسمع العالم صوت إسرائيل وهى تقرر حقا مغتصبا !

ولكن العالم كله لا يعرف بالضبط ما يدور بين مصر وإسرائيل فى مفاوضات الحكم الذاتى . فالمفاوضات معقدة . وهى تجرى أو تتعثر فى ظروف صعبة . محلية أو دولية . . ولكن أهم ما فى المفاوضات هو ذلك الحرص من الطرفين على أن تمضى المفاوضات . وأن تكون هناك حركة بين البلدين وبين الطرفين . هذه الحركة تدل على إصرارنا على أن نستمر . وتدل على أننا أكبر من الصعوبات . .

ولم يكن مفاجأة لأحد أن تتوقف المفاوضات . فقد كانت مفاوضات مدينة هرتسلية لها شكل « القعدة » . وذلك بأن توضع الكراسى فى صف واحد . الواحد إلى جوار الآخر . أو الواحد وراء الآخر . ويدور الحديث بأن يلوى كل إنسان عنقه . ويقول أو يسمع ما يقوله الآخرون . فلم تكن هناك مواجهة . إنما هى محاولات مستمرة ليتفادى كل واحد رؤية الآخر . ولذلك كان لابد أن تتوقف . وتوقفت المفاوضات . .

وليس صحيحا أن السادة بيجين وبورج وبقية وزراء اسرائيل . قد فوجئوا بقرار الرئيس السادات بالتوقف لإعادة الحساب وتقويم الموقف من جميع الجوانب . .

ثم أعلن الرئيس السادات بعد حديث تليفونى مع الرئيس كارتر . أن المفاوضات سوف تستأنف بعد أن تعلن مصر تصورها الواضح لكل شىء .

وعاد الرئيس السادات يعلن توقف المفاوضات . ودارت الروتوس . وحارت الأقلام والميكروفونات . ولم يعرف العالم ماذا حدث بالضبط . وفقدت بعض الصحف الإسرائيلية عقلها . وطاشت كلمات غير مهذبة عندما أحس بعض الكتاب أن قرارات الرئيس السادات إهانة بالغة لإسرائيل . لأنه يلعب بها . دون أن يلق ردا عنيفا من أحد ؟ ! . .

وليس هذا كله سوى تفسير واحد . هو : أن « الجو العام » فى إسرائيل يزداد تشددا . فليست المفاوضات – أو انعدامها – فى هرتسلية هى السبب . ولكن تصريحات السادة بيجين وبورج وشارون . والدماء التى أريقت فى مدينة الخليل . والتصريحات الاستفزازية عن التوسع فى بناء المستوطنات . والاشتباكات بين إسرائيل والقوات الفلسطينية . وأشياء أخرى فى المفاوضات . .

وفى نفس الوقت كانت إسرائيل تحتفل بمرور ١٣ عاما على إعلان القدس عاصمة موحدة لإسرائيل – أى أن القدس حسب التقاليد اليهودية قد بلغت « سن الرشد » . ولذلك احتفل عمدتها السيد تيدى كوليك مع ٢٢ طفلا ولدوا مع القدس العاصمة . أمام تورتة كبيرة .

وفجأة تقدمت السيدة جيئولا كوهين . عضو حزب « البعث الإسرائيلى » باقتراح بقانون : أن تكون القدس عاصمة موحدة لإسرائيل . .

ومن حق أى عضو أن يتقدم بأى شىء . كأن يقول إن حاصل ضرب ٢×٢ يساوى حاصل جمع ٢+٢ . وعلى الرغم من أن هذه بديهية . فإن أحداً لا يستطيع أن يرفضها . ووافق الكنيست بأغلبية على إحالة الاقتراح إلى اللجنة القانونية . .

والتقاليد البرلمانية تقضى بأن تدرس اللجنة هذا الاقتراح . وتحيله إلى الكنيست لإعادة التصويت عليه . ثم يعود إلى اللجنة للمرة الثانية . وتعيده اللجنة إلى الكنيست . ثم يعيده الكنيست إلى اللجنة . وبعد التصويت الثالث يصبح الاقتراح قانونا . .

وكانت الصحف الإسرائيلية قد أعدت مساحة لا تزيد على عشرة سطور . لنشر الاقتراح الاستفزازى الذى تقدمت به السيدة جيئولا كوهين . ولكن عندما لقى هذا النبأ رد فعل عنيفا فى مصر . أخذت الصحف الإسرائيلية تعيد النظر فى هذا النبأ . وتهاجم السفير المصرى سعد مرتضى . وتتهمه بأنه لم ينقل صورة صحيحة لحكومته . وأنه وحده المسئول عن ذلك . وانطلقت شائعة تقول : إن مصر قررت سحب سفيرها فى إسرائيل . .

ودارت مناقشات فى مصر بين السادة مصطفى خليل وكمال حسن على وبطرس غالى . .

ورأوا أن اقتراح السيدة جيئولا كوهين . ليس إلا محاولة غامضة متعمدة لتأكيد المواقف الإسرائيلية القديمة ! . .

وكان التخوف المصرى قد جاء من أن لدينا تصورا بأن « القوانين الأساسية » التى لها قوة الدستور فى إسرائيل . تبدأ بمثل هذه الاقتراحات إلى الكنيست . ومعنى ذلك أنه لن يمضى وقت طويل حتى يكون هذا القرار دستورا يدوس على عنق أية حكومة قادمة . وعلى ذلك فلا معنى لمفاوضات الحكم الذاتى ! . .

ولكن إسرائيل مثل بريطانيا دولة بلا دستور . بل لا تزال القوانين فى إسرائيل من مخلفات الانتداب البريطانى والحكم العثمانى . ثم إنه لا يمكن أن يصبح قانونا أساسيا إلا الاقتراحات

الى تتقدم بها الحكومة . وليس ما يتقدم به أعضاء الكنيست ! . .

ولكن « الخوف العام » هو الذى جعل مثل هذا الاقتراح يبدو كما لو كان قانونا أساسيا نافذا ؟ ! أى أن « الجو العام » بين مصر وإسرائيل ومناقشات الحكم الذاتى هى التى جعلت من الحبة قبة ! . .

وجعلت مثل هذه المناورة البرلمانية وزن وحجم « الشروط المسبقة » للمفاوضات بشأن القدس والضفة الغربية والحكم الذاتى . .

ثم عادت مصر ، وشرحت أن سوء فهم بعض الكلمات قد أدى إلى اتخاذ قرار التوقف الأخير . . ولكن الغموض والتشدد واليأس قد أصاب الجميع . ولذلك لابد من أن يمضى بعض الوقت . .

وبعث الرئيس السادات برسالة إلى الرئيس كارتر . ثم برسالة أخرى إلى السيد بيجين . وكان فى النية أن تبعث مصر بهذه الرسالة إلى إسرائيل عن طريق السفير الأمريكى . ثم صححت هذا الإجراء الغاضب باستدعاء السفير الإسرائيلى د . بن اليسار . وكان فى النية إرسالها يوم السبت . وهو إجازة إسرائيل الرسمية . والإجازة المقدسة عند السيد بيجين . ثم عدلت مصر واستدعت السفير يوم الأحد . .

واتهز السيد مناحم بيجين هذا الموقف ، ليشير فى رسالة بعث بها إلى الرئيس السادات إلى « أن مجلس الشعب المصرى قد اتخذ قرارات واضحة بشأن القدس والضفة الغربية ، وذلك فى أول أبريل الماضى ، وعلى الرغم من قرار مجلس الشعب ، فإن اسرائيل لم تجد فى هذا القرار ما يمنعها من المفاوضات » . .

(فقد أعلن مجلس الشعب المصرى : أن القدس جزء لا يتجزأ من الضفة الغربية ، وأنه لابد من احترام الحقوق العربية التاريخية والدينية للقدس ، ويطالب باستعادتها كاملة ، وأن كل الإجراءات التى اتخذتها إسرائيل لتهويد المدينة باطلة ، وأنه لابد من تطبيق قرارات مجلس الأمن الخاصة بالقدس . وأن من حق سكان القدس العربية أن يشاركوا فى إقامة سلطة الحكم الذاتى ، وأن تكون القدس العربية مقرا للحكم الذاتى الفلسطينى الكامل . .

ويقول السيد بيجين فى رسالة إلى الرئيس السادات : إنه رغم صدور هذا القرار من مجلس الشعب ، فإنه لم يتخذ منه سببا لوقف مفاوضات الحكم الذاتى . . ولا أعتبره شرطا مسبقا) .

والجانب الإسرائيلى لم ير موقف مجلس الشعب هذا ، لأنه معروف قبل ذلك ، ولأن هناك مشاكل معقدة بين الدولتين ، لا يضيف إليها كثيرا مثل هذا القرار الوطنى . .

وفى نهاية رسالة السيد مناحم بيجين طلب من الرئيس السادات أن يقرر متى تبدأ المفاوضات ، لأنه هو الذى قرر وقفها . .

وقد سألت السيدة جيتولا كوهين عن سر هذا الاقتراح الذى تقدمت به،فقالت لى : إنما أردت فقط أن يسمع العالم كله صوت الكنيست وهو يعلن أن القدس عاصمة إسرائيل . . وأنها غير قابلة للتفاوض ! . .

❧❧❧

وفى واشنطون التقى د . مصطفى خليل بالسيد سول ليتوفتس لمدة ثلاث ساعات . ثم التقى الاثنان بالسيد ماسكى وزير الخارجية الجديد . وناقشوا قرار مصر بوقف المفاوضات .

وأخرج د . مصطفى خليل من جيبه النص العربى لقرار مجلس الشعب . ثم ترجمه إلى الانجليزية .

وأعلن السيد ليتوفتس أنه قد جاء فى رسالة السيد بيجين إلى الرئيس الأمريكى : أن الموقف الأخير للكنيست ، ليس إلا ردا على موقف مجلس الشعب المصرى .

ألا يدل ذلك على أن الحكومة هى التى دفعت السيدة جيتولا كوهين إلى تقديم مثل هذا الاقتراح ؟ !

ولكن د . مصطفى خليل أبدى تخوفه من أن يتحول المشروع أو الاقتراح الذى وافق الكنيست على احالته إلى إحدى اللجان،فيصبح قانونا . وقال د . مصطفى خليل : من يضمن لنا أن هذا الاقتراح سوف يدفن فى إحدى اللجان . أو يقفز من اللجنة إلى الكنيست إلى اللجنة ؟ !

❧❧❧

بق الدور الأمريكى . . . فقد أحس الطرفان – مصر وإسرائيل – أن سول ليتوفتس . كان وسيطا مهذبا . ولم يكن شريكا كاملا . .

والوسيط الأمريكى يعرف مقدما . أنه هو الشخص القبيح الوجه عند الطرفين . فإذا ضغط على إسرائيل . استراحت مصر وغضبت إسرائيل . . وإذا ضغط على مصر . استراحت إسرائيل وغضبت مصر . .

ولا تستطيع أمريكا أن تغضب مصر ، ولا أن تغضب الناخب اليهودى . . ولم تهتد أمريكا بعد إلى إرضاء كل العرب . .

وإذا كان فى استطاعة أمريكا أن تفعل شيئا قبل انتخابات الرياسة وأثناءها ، فهو أن تبقى المفاوضات دائرة . . أو متنقلة بين الإسكندرية وهرتسلية طوال هذا الصيف . ولابد أن تتباعد اللقاءات بين الأطراف الثلاثة ، إلى أن تحتفل بالرئيس الجديد لأمريكا . وأثناء الاحتفال بالرئيس الجديد . لابد أن تعطيه بعض الوقت ليستريح ويرتب البيت . .

وسوف يتضح الموقف تماما بعد محادثات « كارتر – مبارك » .

وقد سافر السيد حسنى مبارك نائب رئيس الجمهورية ومعه « عرض واضح للموقف المصرى الإسرائيلى ، وللمواقف العربية المختلفة » .

وسوف يعرض السيد حسنى مبارك على الرئيس الأمريكى كارتر « عددا من البدائل ، أو عدة خيارات لاستئناف المفاوضات بين مصر وإسرائيل من أجل الحكم الذاتى » . .

وسوف يناقش السيد حسنى مبارك مع الرئيس الأمريكى كارتر ، محاولات بعض الدول العربية أن يكون لها دور فى مرحلة متأخرة .

والسيد حسنى مبارك يعلم مقدما مدى ما تستطيع أمريكا أن تقوم به فى هذا الوقت الضيق حتى نوفمبر القادم .

ويعلم مقدما أهمية استئناف المفاوضات عند كل الأطراف ، خاصة عند أمريكا . .

ولذلك فمن المتوقع أن تستأنف مصر المفاوضات مع أمريكا وإسرائيل فى أى وقت .

وإن كان « الجو العام » سوف يبقى ملبدا بالغيوم . لأن أحدا لا يقوى على تحمل مسئولية « تجميد » المفاوضات وقطعها . ثم إن أمريكا ليست فى حاجة إلى مثل هذا الفشل . . وكذلك الدول الغربية إذا أرادت أن تساهم بشىء فلن تقوى على إنجاح هذه المفاوضات . دون مساعدة من أمريكا ! . .